التي ترد في كتاب لأول مرة تمثل على وجه الاجمال النتائج التي استحدثتها المباحثات وتطور الأقوال بين هذا الكتاب والكتب التي سبقته . وهذه الطريقة التي تنطبق بطبيعة الحال على كافة المذاهب الفقهية ستسمح لنا بأن نتبع عن كثب تاريخ أحكامها وأقوالها

ونحن إلى الآن لم نذكر المذهب الحنبلي . وكثير من الفقهاء المسلمين وفي جلتهم ابن جرير الطبري قد آخذوا أحمد بن حنبل الذي يعتبره الجمهور مؤسساً لهذا المذهب بأنه محدث فقط وليس بفقيه ، ولم يكن من الميسور لنا إلى الآن أن نقرر لهذا الرأي ما يبرره أم لا . ولكن كتاب المسائل الموجود منه ثلاث روايات لم يطبع منها إلا واحدة طبعة خاصة يصعب الحصول عليها - أقول إن كتاب المسائل هذا الذي يشتمل على أجوبة الامام أحمد بن حنبل على المسائل التي وجهت اليه في كافة أبواب الفقه كما يشتمل كتاب المدونة الكبرى على أجوبة مالك ابن أنس يسمح لنا بأن نؤكد أن الامام أحمد نفسه أراد أن يكون فقيهاً لأنه كان يعلم مذهباً فقهياً مفصلا لا يقتصر على شرح الأحاديث . ولهذا ينبغي ألا نعتبر مجموع أحاديثه الكبير المشهور بالسند كأنه مؤلف قائم بذاته فحسب ، بل نعتبره أيضاً كتاباً يضع الامام أحمد فيه الأساس لمذهبه الفقهي . ولا يعني هذا أنه أسس المذهب السني الكافي في الفقه بنفس المعنى الذي أسس الشافعي مذهبه على مقتضاه ، لأننا نجد قبله وبعده فقهاء عديدين ذوي صبغة سنية سلفية ، ومذهبهم مستقل عن مذهب الامام أحمد . ويلوح مع ذلك أن دائرة تلاميذه بمذهبهم كانت الوحيدة التي بقيت من تلك الطريقة السنية السلفية المصبوغة بالأخذ بالأحاديث قبل كل شيء في الشرع الاسلامي

وإني لأختتم هذه المحاضرة الثانية متمنياً أن تنشر الكتب الحنفية العظيمة الشأن التي أسلفنا الاشارة اليها أقرب ما يمكن ، فان هذا الميدان ميدان خصب للتعاون بين العلماء الشرقيين والأوربيين ، ذلك التعاون الذي ألمحت اليه في بدء حديثي الأول ، فان فقهاء اليوم باشتراكهم في تحقيق هذا الغرض سوف يعودون بفضل احياء ماضي علمهم كما قد فعلوا بطبع كتاب الأم للامام الشافعي

يوسف شخت

بين شكسبير وابن الرومي

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ليست هذه المقالة موازنة بين شاعرين ، وإنما هي صلة قصيدتين لتقارب موضوعهما ، وأعني قصيدة رثاء أنطونيوس ليوليوس قيصر ، وحث الجمهور على الأخذ بثأره وقصيدة ابن الرومي في رثاء أهل البصرة عندما دخلها صاحب الزنج وفتك بأهلها وسبى نساءهم ومثل بهم أشنع تمثيل ، هذه القصيدة يحث ابن الرومي جمهور المسلمين عامة وأهل الشأن في الدولة العباسية تحريضاً على الأخذ بثأر أهل البصرة والنفير لقتال صاحب الزنج ، وتقاربت القصيدتان في نظر أيضاً لمهارة ما أرى فيهما من الأسلوب الخطابي والقدرة السيطرة على الجماهير بمختلف الأساليب الخطابية ، فينتقل القول فيهما من باعث للشعور إلى باعث ، ومن عاطفة إلى عاطفة ، ومن حيلة في إثارة النفوس إلى حيلة أخرى ، ومن حجة إلى حجة ومن ترغيب إلى إرهاب ، ومن حنان إلى استفظاع ، ومن ذكرى الماضية إلى هول الكارثة ، وتقرأ القصيدة منهما فتحس كأنها قطعة موسيقية توقع على مختلف الأوتار والآلات والأصوات لتعبر عن مختلف الأحاسيس ، وتمتاز قصيدة شكسبير في أنها أبرع ما قرأت في شعر الغربيين من هذا النوع من التأثير الخطابي ، كما تمتاز قصيدة ابن الرومي في أنها أروع ما في اللغة العربية من هذا التأثير الخطابي وأكثره تنويعاً لأساليب التأثير ، ولا يقتصر تأثير القصيدة على كثرة وسائل إثارة النفس كما ذكرت ، ولكن الشاعر فيها يستخدم تكرار بعض الأساليب والعبارات تكراراً يراد به زيادة التأثير الخطابي ، والقصيدة لا تمتاز في ألفاظ أو عبارات منمقة فخمة ، ولكنها تشعر القارئ كأنها قيلت ارتجالا أو أن إحساس الشاعر كان أسرع من أن يدع له مجالاً للاغتراب في اللفظ والتنميق الصناعي ، ففخامتها فخامة الشعور المتدفق ، وعندي أن القصيدة خطبة أكثر منها قصيدة تقرأ في دعة وسكون ، فيكون أثرها أتم وأعم إذ تخيل القارئ كارثة البصرة وما حل بها ، وشارك الشاعر في شعوره وفي رغبته في إثارة أهل بغداد . ثم إذا هو قالها على

سلوب الخطباء متتبعاً اختلاف أساليب الشاعر فى إثارة النفس تغيراً من صوته ولهجته فى إلقائها حسب تغير تلك الأساليب ، بأنه يجد فيها روعة لا مثيل لها فى نوعها فى اللغة العربية

وقصيدة شكسبير تختلف من أجل أن الخطيب كان مضطراً أن يداهن الذين يريد إثارة الرومان عليهم ، فحمدهم على أن سمحوا له برثاء يوليوس قيصر ، ونفى عن نفسه العداء لهم كما نفى عن نفسه القدرة تمهيداً لاظهار قدرته ، وكى يظن السامعون أن أثر المأساة هو الذى أثارهم لا قدرته الخطابية . ثم جعل يمدح قتلة يوليوس قيصر ومزج مدحه إياهم بالسخر الخفى ، ثم ذكر فضل يوليوس قيصر على الرومان وكشف لهم عن جثته وأراهم جروحه الدامية وجعل يستدرجهم من طريق الرحمة والاقرار بفضل المقتول إلى النقمة على القتلة ومجاهرتهم بالعداء والتشنيع ، وابن الرومى لم يكن فى حاجة إلى مداهنة صاحب الزنج فكان يسميه اللعين من أول الأمر ، ويكيل له الهجاء صاعا بعد صاع ، ولكن انظر كيف يتدرج من التوجع لما حل بالبصرة إلى وصف دقيق لما أصابها من الزنج ، ويبدأ وصفه بدخول الزنج المدينة فيقول :

دخلوها كأنهم قطع الليـ ـل إذا راح مدلهم الظلام

ثم يذكر كل ما حدث من قتل وذبح وهتك الأعراض وسبى وإحراق وتخريب وتمثيل حتى يأخذ الفزع بالقارىء مأخذه ثم يلتفت إلى الذكرى فيتذكر رخاء أهلها ونعيمهم وعمار المدنية وبهجتها ، ثم يتوجع ويظهر الحياء من خذلانهم ، ويذكر الناس بمحاسبة الله وبخاصمة النبى إياهم

ثم يلوح للناس بالعار اللاحق بهم ويحضهم على الأخذ بثأر أهل البصرة . والقصيدة طويلة تقع فى أكثر من ثمانين بيتاً ، ولما كان أثرها الخطابى يزداد من تراكم قول على قول وإثارة على إثارة لا من بيت القصيد أو من قطع ممتازة . فكل اقتطاف منها لا ينصفها ، ولا سيما أن أسلوبها ليس بالأسلوب الذى يقرأ فى دعة لديباجته بل يقال جهراً مع تنويع الصوت حسب مرمى الشاعر الخطيب

ويخيل لى أن حافظ ابراهيم كان متأثراً بروح هذه القصيدة عند ما نظم قصيدته فى رثاء قصر الجزيرة وقصيدته فى زلزال مسينا

ومن تكرار ابن الرومى المطرب المؤثر ترديده اللهف فى قوله :

لهف نفسى عليك أيتها البصـ ـرة لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسى عليك يا فرضة البا ... دان لهفاً يبقى على الأعوام
لهف نفسى لجمعك المتفانى ... لهف نفسى لعزك المستضام

أو ترديدكم فى قوله :

كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه قتيلا ... تَرِبَ الخد بين صرعى كرام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام

أو ترديد من فى قوله :

من رآهن فى المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام
من رآهن فى المقاسم وسط الـ ... ـزنج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتخذن إماء ... بعد ملك الاماء والخدام

أو ترديد أين فى قوله :

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام
أين فلك فيها وفلك إليها ... منشئات فى البحر كالأعلام

أو ترديد أفعال الأمر فى أخريات القصيدة ، وهذا الترديد ما هو إلا ناحية من نواحى أسلوبها الخطابى ومثل من أمثلته وطريقة من طرقه المؤثرة ، والأسلوب الخطابى نفسه ما هو إلا ناحية من نواحى الاجادة الشعرية التى تتعدد وسائلها فى القصيدة ، وفى القصيدة ناحية تزيد ألمها فى النفس وهى إعادة الشاعر عرض فظائع القتل والتخريب والتمثيل بعد أن ينتقل بالقارىء أو السامع فى هدوء إلى ذكرى نعيمها الزائل ، وبعد أن يهدىء من روعه بعرض مناظر أمنها وسعادتها ودعة أهلها الماضية فكأنه يتكأ القرح بعد أن يضمده ، ويضرب القلب بعد أن يربت عليه ، ويجذب الأعصاب بعد أن تسكن

عبد الرحمن شكرى